حياتنا الأدبيـــــة

بقلم الدكتور زكى مبارك

كتب الأستاذ الدكتور طه حسين كلمة فى (الدنيا المصورة) تحدث فيها عن الحياة الأدبية فى مصر، وأعلن شكه فى قيمة الأدب الحديث؛ وفى تلك الكلمة جوانب تستحق النقد، لذلك رأينا أن نناقشها مناقشة هادئة غاضين النظر عن بعض المؤاخذات التى واجهناه بها فى محادثة خاصة؛ ونتقدم كلتنا هذه بملاحظة صغيرة عن رأيه فى اهتمام رجال الأدب عندنا بما يكتبه عنهم المستشرقون، وتنحصر هذه الملاحظة فى التأمين على ما كتبه الدكتور طه فى هذا الصدد، لأن الدكتور طه نفسه لم يسلم من الحرص على التعلق بما يكتبه عنا المستشرقون، وكل مافى الأمر أنه تجاوز ما يكتب عنه، ثم تعلق بما يكتب عن الأدب العربى فى جملته، فأعلن حرصه على تدوين ملاحظات المستر(جيب) عن الأدب الحديث؛ وملاحظات المستر(جيب) هذه صارت عند الدكتور طه قرآناً لا ينبغى العدول عنه عند تقدير الأدب الجديد.

فما هى ملاحظات المستر(جيب) التى انبنى عليها حكم الدكتور طه على حياتنا الأدبية؟ هى ملاحظات بسيطة لا تخرج عن أن الرجل ينتظر ظهور القصة فى الآداب العربية! صدق الله العظيم!

الأدب العربى الحديث رهين بظهور القصة، فان لم تظهر تلك العروس الغالية فلا أدب عندنا ولا أدباء!

وفى نقض هذا الوهم ـ وهم الدكتور طه والمستر(جيب) ـ أكتب هذا المقال.

لا ينبغى مطلقا أن نحرص على ظهور القصة فى الأدب الحديث، لأن لذلك الحرص نتائج مشئومة أيسرها أن تغلب على أدبنا صبغة «الافتعال» والافتعال عدو الفطرة، وهو شر مستطير على الآداب والفنون.

إن القصة لن توجد فى الأدب العربى إلا إذا وجدت المرأة، ولن يكون لكتابنا قصص مادامو لا يرون المرأة فى حرية وصراحة، ولا يتأثرون بجبروتها فى ميدان الحياة؛ ولا أمل فى أن نرى لكاتب قصة جيدة، مادام الكتاب بعيدين كل البعد عن المرأة التى تلون الوجود بشتى الألوان، فتحيله تارة جحيما يرمى بالفزع والهول، ثم تعيده حين تشاء جنة وارفة الظلال.

القصة فى جميع الآداب موقوفة على ظهور المرأة، وهى لا توجد فى أدبنا لأننا لا نعرف

المرأة فى حياتنا ، وقد تحدثت بهذا مرة أمام جماعة من الشبان المفتونين بالقصة فقال قائل منهم : « نفترض وجود المرأة » ، ومعنى هذا فى نفس ذلك الشاب أنه لا مانع من افتراض وجود المرأة فى سياق القصة إن كان وجودها من الحتم فى وضع القصص .

واقتراح ذلك الشاب هو بعينه ما أسميه «الافتعال»، فليس يكفى أن نفترض وجود المرأة، وإنما يجب لنكون قصصيين أن تكون المرأة بين أيدينا ، وفى أوهامنا وأحلامنا وظنوننا نساجلها الصدق والرياء، والمكر والخداع،والغدر والوفاء ؛ ولا عبرة بما يتاح لأحدنا من غرام ببنت خالته أو بنت عمته ، وما يقدر لنا أحياناً من هفوات الحارات والشوارع والأسواق ، فان الرجل لا يفهم المرأة بنظرة مختلسة، ولا يدرك أسرارها باللحظ المخطوف ، وإنما يفهمها وتفهمه فى أزمان طوال ، وتلك الأزمان هى خميرة القصة عند من يفهمون !

وقد يكون خيراً من هذا كله أن نسأل هذا السؤال : « من الذى ينتظر ظهور القصة ؟ »

الجواب حاضر : ينتظر هذه القصة أحد رجلين : مستشرق يريد أن يزن الآداب العربية بميزان الآداب الغربية ، وشرقى مفتون بالتقليد يريد أن نساير الأجانب فى كل شىء .

ومن عجيب الأمر أن نجد القصصيين عندنا فى الطبقة الدنيا بين أدباء اللغة العربية ، وللقارىء أن يعدهم واحداً واحداً، فسيرى أنه من النادر أن يكون من بينهم من ظفر بثقافة أدبية وافية تبيح له أن يكون ذا رأى خاص أو أسلوب طريف ، وهم جميعاً عالة على الآداب الأجنبية ، يستوحونها بلا فهم ولا تبصر وينقلون عنها نقلا سخيفاً مشوهاً يجرح الأذواق والنفوس .

وقد أتيح لبعض أولئك الأدعياء أن يزور ما سماه قصصاً مصرية ، ثم ألح على فى لؤم وفى فضول أن أقرظ قصصه فى (البلاغ) ، وظل يكاتبنى برسائل لا تخلو أصحها من عشرين غلطة بين نحوية وإملائية ، فلما كتبت ملاحظاتى على قصصه فى رفق وعطف، غضب واستشرى وراح يعلن أنى أحسده على فنه الجميل !

لانتظار القصة شر محقق وهو إغراء الشبان على أن يفهموا أن الأدب إما أن يكون قصصاً وإما أن لا يكون ، وعلى ذلك تخف فى وزنهم قيمة الفنون الأدبية ، التى لم يتح لها أن تطبع بذلك الطابع السخيف ، طابع الألوان المحلية المبرقشة التى صارت فى وهمهم شارة الاجادة والابداع .

وقد سرى هذا الشر إلى إدارات الصحف ، وصار من اليسير على أى شاب أن يدخل فى أقصوصته بعض الأسماء البلدية : كالحاج مشحوت والحاجة عيوشة ليقال إنه أتى بأدب جديد .

وقد آن أن تفهم هذا الجمهور الغافل أن الأدب لا يكون أدباً، إلا إذا صدر عن صاحبه كما تصدر الزفرة عن فؤاد المصدور، والدمعة عن عين المحزون ؛ فللكاتب أن يعبر عن فهمه للحياة

بالرسالة أو القصيدة أو القصة على شريطة أن يكون صادقاً فيما يكتب ، فلا يكون أدبه لهواً ولا زوراً ولا اختلاقاً ولا افتعالا ، ويومئذ يكون عندنا أدب وأدباء ، أما أن نحمل طبائعنا ما لا تطيق طاعة للمستر (جيب) فتلك إمارة الخيال. وبعد فهل تريدون الحق أيها الناس ؟

اسمعوها كلمة تتردد بين الجد والمزاح، ثم انظروا كيف تحكمون !

من الخطأ أن يقاس أدبنا على أدب الانجليز أو الفرنسيس أو الألمان، وإنما يقاس الأدب على مزاج الأمم التي يصدر عنها ، وملاك الأمر في ذلك كله أن يعبر الأدب عن عقول أهله وأحلامهم وشهواتهم ، وما يجرى في خواطرهم من نزق وطيش ، ويتضاءل في أذهانهم من خطأ وصواب، ويتناحر في سرائرهم من كفر وإيمان؛ وأريد بذلك أن يشغلنا الأدب بأنفسنا فيصور جهلنا وحلمنا ، وضلالنا وهدانا ، وغينا ورشدنا ، بحيث نجد لأنفسنا صورتين: أولاهما في الضمائر، وأخراهما فوق بياض القراطيس .

هذا هو الأدب إن كان عند الدكتور طه أو المستر (جيب) شوق إلى الاطلاع على رأى في فهم الأدب جديد !

فان صح هذا الذى أقوله، فان حياتنا الأدبية لا تغرى بالتشاؤم كما يتوهم بعض الناس ، فان أدبنا في الصحف والمجلات عن طرائف القصائد والمقطوعات والرسائل والمقالات يصور جوانب كثيرة من أزماتنا العقلية والروحية والوجدانية ، ولولا رقابة الحكومة من جانب ورقابة الجامدين من جانب آخر، لكانت لنا جولات في دراسة العواطف والمشاعر والأهواء والأحاسيس والآراء والمعتقدات والأوهام والظنون، لا تقل في خطرها عن جولات المفكرين في الأقطار الأوروبية والأمريكية... ولكن أين تتنفس وقد حبستنا التقاليد في أقفاص من حديد؟

ومع هذا، فنحن أحفاد العرب وأسباطهم ، ومن واجبنا أن ننظر إلى ماضيهم حين نفكر في حاضرنا ، وقد كان العرب تكفيهم اللمحة والاشارة في أشعارهم ورسائلهم حتى عرفوا بين الأمم بقوة الايجاز، وقد تطورنا بالفعل فانتقلنا من الأدب الذى كان يكتفى بالأسجاع والأمثال والفقرات والرسائل القصيرة والمقطوعات الصغيرة إلى الأدب الذى نراه اليوم، أدب المقالة أو الرسائل المطولة ، فلا تنتظروا أن نتحول فجأة، فنقصر الأدب على القصص الطويل رغبة في محاكاة الأجانب من غربيين وشرقيين .

خففوا من تحاملكم قليلا أيها المتأدبون واحكموا منصفين، فان فعلتم فانى واثق من أن مجموعة قديمة كمجموعة زهر الآداب أو العقد الفريد قد تكون في حكمكم — حين تنصفون — أغنى وأعمق وأدل على نفوس أصحابها وعقولهم من الثرثرة الجوفاء التي رميتم بها في وجه الأدب الحديث .

والخلاصة أننا نريد أدباً يمثلنا نحن ، فيصور نفوسنا وعقولنا وقلوبنا ، ويصور كذلك طرائقنا النظرية في عرض ما نشعر وندرك ونعقل في عالم الفكر والخيال .

زكى مبارك